تقديم

تلقيت باعتزاز الرسالة التي تفضل مركز القاهرة لحقوق الإنسان فدعاني فيها لقراءة هذا الكتاب وتقديمه للقراء، إن لم أجد ما يمنعني من ذلك.

والحقيقة أن السبب الوحيد الذي كان يمكن أن يضطرني للاعتذار هو ضيق وقتي في هذه الأيام وازدحامه بالتزامات شتى لا أستطيع تأجيلها أو التخلي عنها، بصرف النظر عن طبيعتها وجدواها. وأنا لم أقرأ للأستاذ حجاج أدول من قبل شيئاً يشجعني على القبول أو يبرر لي الاعتذار. لكن موضوع الكتاب وانتماء مؤلفه لهذه البقعة الغالية من الوطن حسما الأمر وهوَّنا عليَّ الاستجابة للدعوة التي مكنتني من معرفة الكثير مما كنت أجهله عن النوبة والأدب النوبي.

نعم. وأنا أعترف بذلك، وأعطي الحق للمؤلف الذي اشتد علينا باللوم والتقريع، لأن النوبة كانت دائماً بالنسبة لنا طرفاً نائياً منسياً نجهل حاضر، ونجهل ماضيه العريق.

صحيح أن هذا الحكم لا ينطبق عليّ بصورة مطلقة، فقد عرفت عدداً من ألمع الأدباء والفنانين النوبيين كجيلي عبد الرحمن، ويحيى الدين فارس، وزكي مراد، وخليل كلفت، ومحمد حمام. وزرت النوبة مع من زاروها قبل أن تغرق مياه السد ما أغرقته منها، ونظمت فيها قبل أربعين عاماً قصيدتي "بكائية لبلاد النوبة" التي يستطيع القارئ أن يعود إليها في ديواني "مرئية للعمر الجميل"، لكني لا أملك مع هذا إلا أن أتفق مع الأستاذ حجاج أدول حول ما ذكره عن تقصيرنا في حق النوبة وأهلها. وأنا أضيف إلى ذلك أن النوبة ليست وحدها البقعة المظلومة المجهولة في بلادنا، وإنما تشاركها بقاع أخرى يحق لها هي أيضا أن تنحي علينا باللوم وتتهمنا بالتقصير فلا نملك إلا الاعتراف، وإن كانت لهذا التقصير أسباب موروثة، وأولها التخلف الطويل، وقصور الإمكانيات المتاحة لتلبية حاجات هذه البقاع البعيدة المترامية، وعجز أهلها عن الوصول لمنابر الرأي ومؤسسات الدولة التي كانت في معظم الأحيان ولا تزال أدوات للدعاية الحكومية.

من هنا لا أتفق مع المؤلف الذي يرى أن إهمالنا للنوبة والنوبيين موقف عنصري، وذلك حين يناقش الذين يعتبرون الأدب النوبي المكتوب بالعربية جزءًا من الأدب المصري، ويتشككون في وجود أدب نوبي مستقل، فيقول "وإن كان السؤال – عن الأدب النوبي – بسوء نية، فيكون مبعثه عنصرية كارهة متجذرة في قطاع عريض من المصريين"!

وفي اعتقادي أن الأستاذ حجاج أدول خانه التعبير وسمح لغضبه بأن يبعده عن التفسير الصحيح، ويصل به إلى حد الشطط.

أفهم أن يوجه اللوم لسياسة بعينها، أو لتيار سياسي بالذات. أما أن يتهم قطاعاً عريضاً من المصريين بالعنصرية وكراهية الآخرين فهو اتهام ظالم لا يقوم على أساس، ولا نفهمه حتى لو صدر من خصم لدود، فكيف وهو يصدر عن مثقف مصري ينتمي لمصر أياً كانت أصوله وجذوره؟!

وإذا كان هناك قطاع من المصريين النوبيين لا يعرف سيوة، ولا شبه جزيرة سيناء، فهل يكون هذا مبرراً لاتهام النوبيين بالعنصرية؟

www.alkottob.com

وفي اعتقادي أن حال النوبة ربما كان أحسن نسبياً من حال الأطراف البعيدة الأخرى. لأن النوبة امتداد للوادي المأهول. ولأنها لم تكن بعيدة عن مشاريع التنمية والتحديث التي كلفت النوبيين تضحيات جسيمة كخزان أسوان، والسد العالي. لكنها ساعدت في تحقيق اندماجهم في الحياة المصرية.

ولا شك أن ما تحقق كانت له سلبياته التي يتحدث عنها المؤلف بإسهاب، فمن واجبنا أن نتعاون في مواجهتها، لكن ليس من حقنا أن نجعلها سبباً للتفرقة بين أهل النوبة وبقية المصريين.

هذه الملحوظات لا تمنعني من إعلان اتفاقي مع المؤلف في دفاعه عن الخصوصية النوبية في إطار انتماء النوبة لمصر، وانتماء ثقافتها للثقافة المصرية التي تتعدد داخلها الخصوصيات دون أن تنفصم وحدتها أو تتصدع.

والسؤال الذي طرحه مؤلف الكتاب ويطرحه النوبيون وغير النوبيين ممن يكتبون بلغة تشاركهم في الكتابة بها جماعات وبلاد مختلفة هو: بم تتحقق خصوصية الأدب وشخصيته القومية؟ باللغة التي يكتب بها؟ أم بالحياة التي يعبر عنها؟

يجيب المؤلف بأن الأدب ينسب لمن يكتبونه، وإن اشتركوا مع غيرهم في الكتابة بلغة واحدة. فهناك آداب قومية عديدة تنتمي لبلاد وشعوب مختلفة، وتكتب كلها بلغة واحدة فالأمريكيون، والإنجليز، والأستراليون، والهنود يكتبون جميعاً بالإنجليزية. لكن الأدب الأمريكي أمريكي، والأدب الإنجليزي إنجليزي، وأدب الهنود هندي. والفرنسية هي لغة الكتاب في فرنسا، ولغة من لغات الكتابة في بلجيكا، وسويسرا، وكندا، والسنغال. لكن الأدب الفرنسي غير الأدب البلجيكي،والأدب السنغالي.

ولا شك أن المؤلف على حق في هذه الأمثلة التي استشهد بها. لكن هناك أمثلة أخرى تشير إلى العكس. فالشعر الذي كتبه بشار، وأبو نواس، ومهيار الديلمي وسواهم من الفرس ينتمي للغة العربية التي كتب بها هؤلاء، وليس للأمة التي ينتسبون لها ويفخرون بذلك.

والأدب فن ينتسب للغة قبل أن ينتسب لأي أصل آخر. لكن اللغة تتطور وتتغير إذا انتقلت إلى بيئة جديدة، فإنجليزية الأمريكيين أصبحت مختلفة عن إنجليزية البريطانيين. وفرنسية نورماندى في فرنسا غير فرنسية كيبك في كندا. إذا كانت اللغة قد تطورت في مجتمع تطور هو الآخر حتى صارت له حياته وتقاليده وثقافته وشخصيته القومية المتميزة فمن الطبيعي أن يكتسب الأدب الذي ينتجه هذا المجتمع خصائص تميزه عن غيره من الآداب التي تكتب بلغة واحدة. فهل هذا هو حال الأدب النوبي المكتوب باللغة العربية؟

لقد ظهرت الكتابات النوبية الأولى باللغة العربية في أواسط القرن العشرين كما ينبئنا مؤلف هذا الكتاب، فهل يكون نصف قرن كافياً لبلورة أدب نوبي له سماته الخاصة رغم أنه مكتوب بالعربية التي يكتب بها المصريون، واليمنيون، والسوريون، واللبنانيون، والعراقيون، والمغاربة، والسودانيون؟

في اعتقادي أن الوقت ما زال مبكراً للإجابة على هذا السؤال. غير أن المؤكد هو أن النوبيين لهم خصوصيتهم الثقافية التي تتجلى في نصوصهم الشفوية، وفي غنائهم، ورقصهم، وعمارتهم، وتقاليدهم الموروثة، وماضيهم العريق.

أحمد عبد المعطي حجازي

www.alkottob.com